

قراءة في علاقات التأثير والتأثر بين اللغة والمجتمع

AN ANALYTICAL STUDY OF INTERPLAY BETWEEN LANGUAGE AND SOCIETY

د. نفيسة طيب *

جامعة البويرة، مخبر علوم اللسان والدراسات الأدبية والنقدية، البويرة 10000، الجزائر،

n.taieb@univ-bouira.dz

تاريخ الاستلام: 2024/10/14؛ تاريخ القبول: 2024/11/25؛ تاريخ النشر: 2024/12/22

ملخص:

جاءت هذه الورقة البحثية لمناقشة قضية قديمة قدم أركانها، ألا وهي علاقة اللغة بالمجتمع؛ اللغة باعتبارها نظاما عاما يتبعه أفراد المجتمع الواحد، ويتخذونه وسيلة للتعبير عما يجول في خواطرهم، وهو وسيلتهم للتفاهم فيما بينهم أيضا، والمجتمع باعتباره مجموعة من الناس يشكلون نظاما نصف مغلق، وتتشكل بينهم شبكة من العلاقات، فالمجتمع مجموعة من الأفراد الذين يعيشون في موقع معين يرتبطون فيما بينهم بعلاقات اجتماعية وثقافية، يسعى كل واحد منهم لتحقيق مصالحه واحتياجاته، ويتواصلون فيما بينهم بواسطة اللغة، ومن هنا تبدو العلاقة بين اللغة والمجتمع علاقة متشابكة ومعقدة، فجاءت هذه الدراسة قصد توضيح هذه العلاقة

كلمات مفتاحية: لغة؛ مجتمع؛ تأثير؛ تأثر.

Abstract:

This paper discusses a very old Issue, namely, the relationship of language to society. Language is, on one hand, a general system followed by people used as a means to express themselves and to understand one another. On the other hand, as society is considered as a group of people who form a semi-closed system and share relationships, it is defined as a group of individuals who live in a specific place connected through socio-cultural relationships and each

of them looks for achieving his own interests and meeting his needs. The means of communication among these individuals is language. Since the relationship between language and society seems to be a complicated one, this paper will attempt to clarify it.

Keywords: Language; society; impact; sensitivity.

1- المقدمة:

تعدّ اللغة ظاهرة اجتماعية، وقد عرفها الإنسان منذ نشأته، كما أنّها مكنته من إنشاء مجتمع وإقامة حضارة، وبذلك شكلت اللغة والمجتمع ظواهر متداخلة متكاملة. فقد ارتبطت الظواهر اللغوية بالظواهر الاجتماعية منذ أن وجدت اللّغة؛ فاللّغة منذ الأزل تأثّرت بالعادات والتقاليد وكذا الأنظمة الاجتماعية في مرحلة زمنية ما ورقعة جغرافية معيّنة.

شغلت هذه العلاقة بالباحثين والدارسين منذ القدم، لكنّها لم تأخذ معهم حقّها من الدرس والبحث، ولكن علم اللغة الاجتماعي (sociolinguistique) أولى هذه العلاقة أهمية بالغة وتناولها من مختلف جوانبها، وكان من أبرز الباحثين في هذا المجال إميل دوركايم (Emile Durkheim) في مؤلفه "قواعد المنهج الاجتماعي". حيث يذهب الباحثون في هذا المجال إلى أنه ليس باستطاعتنا فهم اللغة وقوانين تطوّرها بمعزل عن المجتمع الناطق بها في زمان ومكان معينين.

وتعدّ اللغة أقوى رابطة بين أعضاء المجتمع، فاللغة قادرة على تأدية وظائف جوهرية وأساسية في أي مجتمع من المجتمعات، ومن هنا جاز لنا أن نتساءل: كيف تؤثر اللغة في المجتمع؟ وكيف تتأثر به؟ ومن ناحية أخرى كيف يطور المجتمع لغته حتى يحقق رقيّه؟ وكيف تساهم اللغة في تطوير المجتمع والرقى به؟

إنّ الحديث في هذا الموضوع ليس بالأمر الجديد، فقد أسال الحبر الكثير، والدراسات حوله كثيرة جداً، لكنّنا أردنا أن نقدم للمهتمين حوصلة لما ذكرته الدراسات السابقة حول الموضوع. ولإنجاز هذه الدراسة اعتمدنا المنهج الوصفي، حيث عمدنا إلى جمع وتنسيق وتحليل ما ورد في الدراسات السابقة.

2- في مفهوم اللغة والمجتمع:

تعدّ اللّغة أرقى مظاهر الحضارة والرقى، وهي أهم نشاط إنساني، ويظهر دورها جلياً في الحياة والمجتمع ممّا يكسبها مكانة بارزة وأهمية بالغة، وقد اهتم الباحثون بعلاقة اللغة بالمجتمع اهتماماً بالغاً.

2-1 في مفهوم اللغة:

اهتم جلّ الباحثين المعاصرين باللّغة ضمن سياقها أو بالأحرى سياقاتها، وقد تفتّن هؤلاء الباحثين إلى أنّ الكلام ليس أصواتاً تلقى في فراغ، وأنّ هذا الكلام يتطلب منّا النظر إليه في إطار اجتماعي خاص، يحتوي هذا الإطار على عناصر متكاملة وأساسية في عملية الفهم والإفهام وهذه العناصر هي: المتكلم، والمتلقي، والزمان والمكان، وكذا الكلام. وقبل مناقشة مسألة علاقة اللغة بالمجتمع كان لابدّ من تحديد مفهوم كل طرف من أطراف هذه العلاقة.

ورد معنى لفظة اللغة في المعاجم العربية كمرادف للفظّة النطق، وهو ما ذكره ابن منظور في مادة (ل غ ا) حيث يقول: "... اللغة من الأسماء الناقصة، وأصلها لغوة وقيل لغا يلغو ولغا فلان عن الصواب وعن الطريق إذا مال عنه، واللغو: النطق. يقال هذه لغتهم التي يلغون بها أي ينطقون بها"⁽¹⁾ فالمعنى المعجمي للفظّة اللغة يعني النطق أي إصدار أصوات بغرض التعبير عن النفس والتواصل مع الآخر. أما من الناحية الاصطلاحية فقد كان تعريف ابن جني لها من التعريفات المهمة حيث عرّفها بأنها: "أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم"⁽²⁾. فابن جني من خلال هذا التعريف اعتبر اللغة مجموعة من الملفوظات يعبر بها الفرد ويظهر ويفصح عما يريد تبليغه، فأشار إلى طبيعة اللغة الصوتية ووظيفتها التعبيرية؛ فاللغة هي وسيلة الإنسان لإبلاغ مقاصده التي يعدّ الباعث على فعل التعبير. ومن خلال هذا التعريف يلمّ ابن جني بمختلف خصائص اللّغة، وهي كونها ظاهرة صوتية، واجتماعية، وتواصلية بالإضافة

(1) ابن منظور أبو الفضل، لسان العرب، ج 13، ط3، دار صادر، بيروت لبنان 1994: مادة (ل غ ا)، ص 214.

(2) ابن جني أبو الفتح، الخصائص، ج 1، تح. محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، مصر 1986، ص 13.

إلى أنها تواضعية، حيث أن لكل قوم لغة خاصة به، ويؤكد هذا المذهب جوزيف فندريس (Joseph Vendryes) حين ذهب إلى اعتبار اللغة أقوى الروابط التي توحد أو تربط المجتمع⁽¹⁾.

أما ابن خلدون في حديثه عن اللغة أشار إلى جوانب أخرى ف اللغة فيقول: "هي ترجمان عمّا في الضمائر، يؤدّيها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم وممارسة البحث في العلوم، لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك"⁽²⁾ يعتبر ابن خلدون اللغة وسيلة تواصل بين أفراد المجتمع، وهم في ذلك يستخدمون رموزا صوتية، في مجالات مختلفة كالتعلّم والتعليم... وغيرها، ومن خلال الممارسة والتجريب تتحوّل إلى ملكة.

2-2 في مفهوم المجتمع:

أما المجتمع فهو مجموعة من الأفراد تربط بينهم علاقات منظّمة، ويخضعون لعادات وتقاليد مشتركة⁽³⁾، فالمجتمع هو مجموعة من الأشخاص الذين تجمع بينهم علاقات ويتّسمون بالانسجام فيما بينهم، كما أنّ هؤلاء الأفراد تسود بينهم أعراف وعادات وتقاليد هم ملزمون باحترامها، ومجبرون على الالتزام بها وعدم خرقها والخروج عن الأطر والقوانين التي سنّها المجتمع. ويذهب مالك بن نبي في تعريفه للمجتمع إلى أبعد من هذا حين يقول: "هو الذي يقوم بوظيفة نحو لفرد ليحقق راحة الفرد فإنه لا بدّ أن فهم معناه فهما دقيقا فهو ليس عددا من الأفراد، وإنما هو شيء خاص هو بنيان وليس تكديسا من الأفراد، بنيان فيه أشياء مقدسة متفق عليها"⁽⁴⁾ يجعل ابن مالك العلاقة التي تجمع بين أفراد المجتمع علاقة متناسقة ومتراصة، وتقوم على أسس وركائز صحيحة من أعراف وتقاليد، ويجب عليهم الالتزام بالعادات والتقاليد. وتحتلّ اللغة مكانة مهمة في أي مجتمع من المجتمعات، إذ لا يمكن أن نحصرها في مجرد كونها رموزا صوتية تنتجها الجماعة اللغوية وتتناقلها الأجيال

(1) فندريس جوزيف، اللغة، تر. عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر 1950، ص 35.

(2) ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، تح علي عبد الواحد وافي، ط3، دار النهضة المصرية، مصر 1989، ص 1260.

(3) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، د ط، المطابع الأميرية: الهيئة العامة للشؤون 1983، ص 171.

(4) مالك بن نبي، تأملات، تر. عبد الصابور شاهين، ط1، دار الفكر، دمشق سوريا 1989، ص 157.

جيلا عن جيل، ليتواصلوا فيما بينهم، ويصفوا بها مشاعرهم وعواطفهم، ويعبروا عما يدور في أذهانهم من أفكار، وإنما هي أداة تشكّل الواقع وتملك سلطة على الأجيال الجديدة، كما أنها تفرض في بيئتها علاقات اجتماعية متشعبة.

كما تمتلك كلّ طبقة من طبقات المجتمع أنماطا كلامية نابغة من اتجاهاتها الفكرية الخاصة، وبالتالي نلاحظ أنّ هناك رابطا متينا بين الفكر واللغة، وهما يشتركان في صناعة حضارة المجتمعات. ومن هنا جاز لنا أن نتساءل عن العلاقة التي تربط بين اللغة والمجتمع، كيف يؤثر كلّ طرف في الآخر؟ خاصة وأنّ اللغة تعدّ مثل الكائن الحي تولد وتنشأ وتنمو وتتطوّر، كما أنّها قد تمرض وتهمز وربما توت، وهي مع كلّ ذلك مرتبطة بحياة أفرادها الناطقين بها.

3- علاقة اللغة بالمجتمع:

تؤثّر اللغة على أفراد المجتمع من عدة نواحي؛ من حيث فكرهم، وهويتهم، وثقافتهم، ومن ثمّ على حضارتهم. ونتيجة لذلك نخلص إلى أنّ اللغة أساس مهمّ للحياة الاجتماعية أو ضرورة من أهمّ ضروراتها لأنها أساس لوجود التواصل في هذه الحياة وليس لتوطيد سبل التعايش فيها. كما تعدّ اللغة مرآة عاكسة؛ ينعكس فيها كذلك ما يسير عليه الناطقون بها في شؤونهم الاجتماعية العامة، فعقائد الأمة، وتقاليدها، وما تخضع له من مبادئ في نواحي السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة، وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم، وما تعتنقه من نظم كالموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة... كلّ ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة في جميع مظاهرها: في الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب... وهلم جرا⁽¹⁾. ومن هنا يظهر الترابط بين اللغة والمجتمع جليا أمّا الروابط التي تربط بين اللغة والمجتمع قد تنوعت وجّهات النظر فيها:

• يذهب الفريق الأوّل إلى أن التركيب اللغوي يتأثر بالتركيب الاجتماعي والدليل على ذلك أن التنوعات الكلامية التي يتحدث بها المتكلمون تكشف عادة الأصل العرقي أو الإقليمي أو الاجتماعي، فاختيار كلمات معينة وطريقة خاصة في الكلام قد تحدّده متطلبات اجتماعية معينة.

(1) علي عبد الواحد الوافي، اللغة والمجتمع، ط2، دار إحياء الكتب العربية، مصر 1951، ص 11.

- ويذهب الفريق الثاني إلى أن التركيب اللغوي والسلوك يؤثران في شكل التركيب الاجتماعي.
- ويذهب الفريق الثالث إلى أن كلا من اللغة والمجتمع يؤثر أحدهما في الآخر فالسلوك اللغوي والسلوك الاجتماعي في حالة تفاعل دائم.
- ويذهب الفريق الرابع إلى أنه لا وجود لأي رابط بين التركيب الاجتماعي والتركيب اللغوي وأن كلا منهما مستقل عن الآخر.

سنحاول في هذا المقال أن نبين العلاقة الموجودة بين اللغة والمجتمع، فهل اللغة تؤثر أم تتأثر بالمجتمع؟

تجمع الفرق الثلاثة على وجود علاقة بين اللغة والمجتمع، لكنهم اختلفوا في شكل العلاقة الموجودة بينهما، إذ تربط اللغة بالمجتمع علاقة وطيدة، حيث أنه لا يمكننا أن نتصور مجتمعا دون لغة ولا أن نتصور لغة دون مجتمع «فكي توجد اللغة لأبد من مجموعة ناطقة بها، فهي وأيا كانت لحظتها فلا توجد خارج الواقعة الاجتماعية»⁽¹⁾ فاللغة لكي يكون لها وجود لأبد من أن توجد جماعة تتكلم بها، حيث أنه لا يتحقق وجودها إلا بفضل نوع من التعاقد بين أعضاء المجموعة الواحدة، يشير سوسير هنا إلى ضرورة التواضع بين أفراد الجماعة اللغوية فاللغة حسب سوسير -تتسم بالاعتباطية والتواضع بين أفراد الجماعة التي تجسدها، وبالتالي لا يمكن أن نجد لغة بعيدا عن المجتمع، ثم إن المتكلم الذي «يستعمل لغة المجتمع الذي نشأ فيه يستعمل أصواتها وصيغها، ومفرداتها، وتراكيبها، حسب أصول استعمالية معينة، يحذفها بالمشاركة في التخاطب، ويمرّن عليها...»⁽²⁾ فعلى المتكلم أن يراعي القواعد المتفق عليها في مجتمع من المجتمعات وذلك يأتي بالمراس والدرية. فاللغة تتشكل بالشكل الذي يتفق مع اتجاهات الأمة العامة ومطامحها ونظرتها إلى الحياة.⁽³⁾

إن الملاحظ للغة عبر مختلف مراحلها يجد أن ألفاظها تتطابق وحاجيات المجتمع، وهذا يعني أن هناك علاقة وطيدة بين اللغة والمجتمع، ف"دو سوسير" يرى أن «لعدادات أمة ما تأثيرا

(1) دو سوسير فردناند، محاضرات في الألسنية العامة، تر. يوسف غاري ومجيد النصر، ط 1، دار النعمان للثقافة، لبنان 1984، ص 99.

(2) تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 1، مصر 1958، ص 09.

(3) علي عبد الواحد الوافي، اللغة والمجتمع، ص 15.

في لغتها، فضلاً عن أنّ هذه اللّغة هي التي تصنع الأمة إلى حدّ كبير" ⁽¹⁾ فالعلاقة بين اللّغة والمجتمع متينة ومتداخلة، فاللّغة تتغذى من صميم التقاليد والأعراف والعقائد السائدة في المجتمع، فالمجتمع بمختلف أنظمتها (السياسية، الاجتماعية، الثقافية) يترك أثره في اللّغة. فما يمسّ المجتمع يمسّ اللّغة كذلك لأنها «ليست واقعا ذهنيا مجردا، لا رابط يربطه بالواقع الاجتماعي" ⁽²⁾ فاللّغة مرتبطة بالواقع الاجتماعي وكل تغيير في هذا المجتمع سيؤدي إلى تغيير في اللّغة. حيث ترجع أهم الأسباب في نشأة كلمات لم تكن موجودة في اللغة من قبل، وفي هجر كلمات كانت مستخدمة فيها أو انقراضها انقراضا تاما، إلى استعمالها من طرف أفراد المجتمع، فأهم العوامل التي تدعو إلى نشأة كلمات في اللغة ترجع إلى مقتضيات الحاجة إلى تسمية مستحدث اجتماعي جديد؛ نظام حديث في الشؤون الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها، نظرية جديدة علمية أو فلسفية، مخترع مادي جديد، وأهم العوامل التي تؤدي إلى انقراض كلمة من الاستعمال ترجع إلى انقراض مدلولها نفسه من نطاق الحياة الاجتماعية أو إلى عدم استخدامه. فاللّغة العربية على سبيل المثال عرفت تطوّرا ملحوظا من العصر الجاهلي إلى عصرنا الحالي، فقد اختفت كلمات كثيرة وظهرت كلمات جديدة لم تكن موجودة، وهناك بعض الكلمات عرفت تغيّرا في الدلالة، ف «العلاقات الاجتماعية والصناعات المتنوعة تعمل على تغيير المفردات وتقضي على الكلمات القديمة أو تحوّر معناها، وتتطلب خلق كلمات جديدة» ⁽³⁾ ومن نماذج بعض الكلمات كانت تستخدم في الجاهلية لكنها اختفت وانقرضت في وقتنا الحالي: المرباع والتي تعني ربع الغنيمة التي كان رئيس القوم يأخذها لنفسه في الجاهلية وكذا النوافع وهي الإبل التي تساق في الصداق ⁽⁴⁾ ففي مجتمع من المجتمعات هناك بعض الأشياء تظهر وأخرى تختفي كالملابس والأثاث، ووسائل النقل، وكذا الآلات الصناعية، والاختراعات التكنولوجية؛ ففي الوقت الحاضر نشهد دخول الكثير من الكلمات إلى القاموس -سواء في اللّغة العربية أو غيرها من اللّغات لم تكن موجودة من قبل كالكلمات التي تتعلق بالتكنولوجيات الحديثة كالتوترة، البيوتوب، الترنند... وغيرها. وهناك كلمات فرضها الاستعمال من طرف أفراد المجتمع نحو *Nasser، Ghoster التي دخلت القاموس الفرنسي هذه السنة (2024).

(1) دو سوسير ، محاضرات في الألسنية العامة، ص 35 .

(2) هادي نهر، علم اللّغة الاجتماعي عند العرب، ط1، دار الغصون، بيروت لبنان 1988، ص 27.

(3) فندريس، اللغة، ص 247.

(4) علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، ص: 23.

كانت اللّغة وما تزال وسيلة للتواصل تواكب التطوّر الإنساني عبر مراحل اكتمالها، فلو قارّنا لغة الآداب العربية التي سادت في القرون الوسطى بمثلتها في هذا العصر، لرأينا الاختلاف بينهما جلياً: ففي الماضي ظهرت الكتب المسهبة والمطوّلة كقصص ألف ليلة وليلة، وأبي زيد الهلالي، فكان يؤرخ للحدث التاريخي بكلّ تفاصيله وكيفياته، كنهاية الأمويّين، ونكبة البرامكة، ويعود ذلك إلى خطى الحياة البطيئة وصعوبة المواصلات، إذ كانت الرّحلات التجارية وغير التجارية تستغرق وقتاً طويلاً. كما أنّ معظم الناس آنذاك لم يرتبطوا بوظائف تحدّد عليهم أوقاتهم، فكانت سهرات المسامرة تطوّل، ولقطع هذه الأوقات الطّوال في السّفر أو الإقامة، ظهرت مثل تلك الكتب التي تفيض بالأحداث والتفاصيل. أمّا اليوم فلا يمكن أن ينجح هذا النّهج القصصي أو الإخباري، أو أن يستأثر باهتمام الناس، فآلية العمل وخطى الحياة المتسارعة، تفرض ذاتها على اللّغة، حتى بات المحرّر الإخباري الناجح هو الذي يحرّر الخبر بأقلّ الجمل، بل بأقلّ الكلمات في الجملة الواحدة⁽¹⁾ فسمّة العصر هي السرعة، حيث نجد الناس يميلون إلى الاختصار في هذا العصر على عكس المجتمعات السابقة التي كانت تميل إلى السّهر والسّمر لتمضية الوقت.

فما كان على اللّغة إلا مواكبة عجلة التقدم وذلك لا يتحقّق لها إلا من خلال اكتسابها لعدد غير متناه من المصطلحات في خضم التطوّرات الحضارية الراهنة، فدرجة تفوّق المجتمعات في الحضارة «تمهّد لنمو اللّغات الخاصة، اللّغة الحقوقية، المصطلحات العلمية إلخ...»⁽²⁾ فظهور اللّغة الخاصة ظاهرة خاصة في تاريخ اللّغة، حيث نجد الناس ينتظمون في جماعات خاصة يلجؤون فيها إلى خلق لغة متميزة نوعاً ما عن لغة المجتمع الذي يعيشون فيه، فللفلاسفة لغتهم الخاصة وللفيزيائيين لغة خاصة، ولرجال الدين لغتهم الخاصة وللسياسيين لغة خاصة بهم كذلك.

إنّ كلّ تغيير يطرأ على بنية المجتمع يصيب بنية اللّغة، غير أنّ التغيير لا يحدث بسرعة ولا في فترة زمنية واحدة، ولكن في حالة أخرى يمكن للّغة أن تحافظ على ألفاظها دون تغيير، حيث يذهب سوسير إلى أنّ الزمن يعطي القوى الاجتماعية الاستطاعة كي تبدّل أو تفرض آثارها في اللّغة ويسمح لتلك القوى بتطوير تأثيراتها⁽³⁾ فاللّغة قد تحافظ على جلّ ألفاظها

(1) حسن ظاظا، اللسان والإنسان، مكتبة الدراسات اللغوية، دط، القاهرة، مصر 1971، ص 111.

(2) دو سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ص 100

(3) دو سوسير، محاضرات في الألسنية العامة، ص 120.

فيستعملها الناس ويتداولونها عبر مختلف الأزمنة في المجتمع الواحد، كما يمكن أن تعرف بعض الألفاظ تغييراً نتيجة عوامل اجتماعية أو ثقافية أو غيرها. فالمجتمع يهدف إلى صبغ أفرادها بالصبغة الاجتماعية، وكلما ازداد الفرد توغلاً وانغماساً في مجتمعه كلما لعبت اللغة دوراً مهماً في صبغ الفرد بالصبغة الاجتماعية، وهذا ما يلفت النظر إلى دورها في تحقيق الفرد. كما أن اللغة تمكننا من التعرف على ملامح المجتمع، كونها تعكسُ صوراً مهمة لمختلف الأوضاع التي سادت وتسود فيه «فالمعجم اللغوي لأمة ما، هو في الوقت صورة ملخصة لما تعرفه هذه الأمة في حياتها اليومية، وكيانها الاقتصادي، والسياسي، وسلوكها الديني والأخلاقي، وتقدمها العلمي والفني»⁽¹⁾. فلغة مجتمع من المجتمعات تكشف لنا العديد من خصائص ذلك المجتمع، فعند قراءة قصيدة من القصائد أو رواية من الروايات نستطيع أن نكتشف الكثير عن المجتمع الذي نشأت فيه، كما يمكننا أن نعرف الكثير من الأمور السياسية والثقافية المتعلقة بمجتمع من المجتمعات من خلال الاطلاع على آداب ذلك المجتمع، وخير مثال على ذلك الأدب الفلسطيني الذي يعكس المجتمع بكل أبعاده.

كما تجدر بنا الإشارة إلى أن اللغة هي الوسيلة الأساسية لإبراز ما يخلقه الفكر، وإذا لم يستطع الفرد التعبير عن أفكاره فهذا دليل على نقص الثروة اللغوية لديه؛ لأنَّ الإنسان لا يستطيع تحويل قدراته الإبداعية الكامنة إلا إذا كان لديه زاد لغوي، كما أنَّ امتلاك الفرد لخاصية اللغة يولّد لديه رغبة في التواصل مع الآخرين. بالإضافة إلى أن اللغة تساعد الفرد على فهم كثير مما يقرأ، وكلّما تمكّن الفرد من فهم ما يقرأ كلما زادت رغبته في حب الاستطلاع أكثر فأكثر. وحب الاستطلاع ذلك يؤدي إلى رغبة ملحة لاكتشاف البيئة التي يعيش فيها الفرد ويكتشف المجتمع الذي يعيش فيه كذلك، وعليه فإن امتلاك الفرد لثروة لغوية يجعله فرداً فعالاً في محيطه وبين أفراد مجتمعه، وقادراً على بناء حضارة أمته والتهوؤ بها.

ومن ناحية أخرى فإن عدم الاهتمام باللغة سيترتب عنه سلبيات كثيرة يعود أثرها على الفرد خاصة والمجتمع وحضارته بصفة عامة، فإن عجز الفرد عن امتلاك الثروة اللغوية يؤدي إلى عجز الفرد عن اكتساب خبرات ومعارف من جهة، وكذا عجزه عن فهم ما ينقل إليه من جهة أخرى، وبالتالي هذا سيؤدي إلى تخلف فكري وحضاري، ومن هنا يبدو جلياً قوة

(1) ظاظا حسن، اللسان والإنسان، ص 98

الرابط بين ذكاء الفرد ورصيده اللغوي. فكلما ارتفعت نسبة الرصيد اللغوي كلما زادت نسبة ذكاء الفرد، والعكس صحيح، ومن هنا يظهر دور ومكانة اللغة في المجتمع.

وتتضح هذه العلاقة الوطيدة بين اللغة والمجتمع من خلال دراسة المستويات اللغوية المتباينة فهي تساعدنا على الكشف عن انتماءات المتكلمين الاجتماعية ودرجة ثقافتهم أو تعلّمهم «ففي الجماعة الكلامية الواحدة تختلف لغة المتعلمين عن لغة الأميين، والمتعلمون يختلفون فيما بينهم باختلاف درجة تعلّمهم، وباختلاف مهنتهم، وباختلاف درجة ثرائهم وبسوى ذلك من الأسباب»⁽¹⁾، إن هذا الكلام يدلّ على أن لكلّ فئة في المجتمع لغة خاصة بها «الفلاح الذي يعيش في بيئة منعزلة، وليس لديه نصيب وافر من الثقافة، تكون لغته غنية بالمفردات التي تحاكي، عادة الأرض والطبيعة والحيوان، ويوظفها في حديثه الي لام إلى أن اللغة تعكس مستوى المتكلم، فاللغة تعكس انتماء مستعملها، فللملوك لغتهم، ولرجال الدين لغتهم، وللأطباء لغتهم، وللتجار لغتهم، ولربات البيوت لغتهم كذلك، لكن حتى «وإذا كانت اللغة تخضع لتأثير عوامل اجتماعية أو اقتصادية، فإن ثقافة الفرد تساعد على القفز فوق طبقته، فتحزّر لغته من ذلك التأثير»⁽²⁾ ففي بعض الأحيان يستطيع الفرد الذي ينتمي إلى طبقة ما الارتقاء بلغته ليصبح قادرا على منافسة أصحاب الطبقة الرفيعة، فقد نجد أشخاصا بلغوا المراتب العليا في الفصاحة والبلاغة والبيان رغم أن أصولهم كانت وضيفة في بداية حياتهم، مثل الجاحظ على سبيل المثال. فاللغة تتباين بين الأفراد بحسب مكانتهم الاجتماعية وحسب ثقافتهم، إضافة إلى أنها تتباين وفق المواقف والأحداث كما تقول العبارة المشهورة «لكل مقام مقال» والمقام «ليس مجرد مكان يلقي فيه الكلام، وإنما هو إطار اجتماعي ذو عناصر متكاملة أخذ بعضها بجّر بعض، فهناك الموقف كلّه بمن فيه من متكلمين وسامعين، وعلاقتهم ببعضهم ببعض، وهناك كذلك ما في الموقف من الأشياء والموضوعات المختلفة التي قد تفيد في فهم الكلام والوقوف على خواصه، وهناك كذلك الكلام نفسه، وهذا الكلام في حقيقة الأمر ليس إلّا عنصراً واحداً من عناصر المسرح اللغوي بأكمله، ولا يتمّ فهمه إلّا في هذا الإطار العام»⁽³⁾.

(1) محمود السعمران، اللغة والمجتمع، رأي ومنهج، ط 2، دار المعارف، القاهرة مصر 1963، ص 58

(2) أليس كوراني، اللغة والمجتمع عند العرب، الجاحظ نموذجاً، ط 1، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان 2013، ص 24

(3) محمد كمال بشر، دراسات في علم اللغة (القسم الأول)، دار المعارف، د ط، القاهرة، مصر 1969، ص 65

يكتسب المقام إذن مكانة كبيرة لتحديد مضامين ومعاني اللّغة، فالمقام أو ما سمي حديثا بالسياق، هو كاشف المعاني والدلالات، ولتوضيح دور السياق يضرب تمام حسان مثالا على ذلك جملة (يا سلام)، فيقول: «كلنا قد تعلم أن "يا" من حروف النداء وأن كلمة "سلام" اسمٌ من أسماء الله تعالى وهي كذلك ضدّ الحرب، فإذا أخذنا المعنى الوظيفي لأداة النداء والمعنى المعجمي لكلمة "سلام" حيث ننادي "يا سلام" فإن المعنى الحرفي أو المقالي أو ظاهر النص أننا ننادي الله سبحانه وتعالى لا أكثر ولا أقل ولكن هذه العبارة صالحة لأن تدخل في مقامات اجتماعية كثيرة جدا ومع كل مقام منها تختلف النغمة إلى تصحّب نطق العبارة فمن الممكن أن تقال هذه العبارة في مقام التأثر وفي مقام التشكيك وفي مقام السّخط، وفي مقام الطّرب وفي مقام التوبيخ وفي مقام الإعجاب، وفي مقام التلذذ، وفي مقامات أخرى غير ذلك»⁽¹⁾ فالجملة الواحدة تؤدي عدّة معاني وذلك حسب السياق الذي ترد فيه، كذلك نجد المعلّم يتحدث مع طلبته بلغة تختلف عن تلك اللّغة التي يخاطب بها أهله وأولاده سواء على مستوى الكلمات أو الدلالات أو طرائق التعبير.

من كلّ هذا يتبيّن لنا أن اللّغة ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع فهذه «العلاقة المتجاذبة بينهما لفتت أنظار الباحثين في حقل اللّغة والاجتماع في العصر الحديث، فلاحظوا أنّ الظواهر اللّغوية والاجتماعية تتداخل فيما بينها ولا يمكن فصلها بشكل قاطع»⁽²⁾ هذا ما أدّى إلى ظهور فرع جديد من فروع علم اللّغة ألا وهو علم اللّغة الاجتماعي الذي يهتم بالظاهرة الكلامية كوسيلة اجتماعية تختلف عن تناول اللسانيات لها.

4- خاتمة:

في ختام هذا البحث، وصلنا إلى جملة من النتائج نجملها فيما يلي:

- أنّ اللغة وثيقة الصلة بالإنسان وبيئته.
- تُظهر اللغة المجتمع الإنساني على حقيقته.
- تعدّ اللغة عاملا مهماً للترابط بين جيل وجيل وانتقال الثقافات عبر العصور؛ إذ تجعل من الأمة الناطقة بها كلا مترابعا خاضعا لقوانين التطور.
- لا يمكننا أن نتصوّر مجتمعا دون لغة ولا أن نتصوّر لغة دون مجتمع.

(1) تمام حسان، اللّغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د ط، القاهرة، مصر 1973، ص 345

(2) أليس كوراني، اللغة والمجتمع عند العرب، ص 27

- إنَّ العلاقة بين اللّغة والمجتمع قوية ومتشابكة، فاللّغة تتغذى من صلب التقاليد والأعراف والعقائد السائدة في المجتمع، فالمجتمع بمختلف أنظمتها يترك أثره في اللّغة.
- إنَّ أي تغيير فيمس المجتمع سيكون له إلى أثر في اللّغة.
- من مظاهر تطور اللغة وارتباطها بالمجتمع ظهور اللغة المتخصصة، تلك اللغة التي تستعملها جماعة لغوية معيّنة.
- تعدّ اللغة أداة مهمّة لإبراز ما يخلقه الفكر، وإذا لم يستطع الفرد التعبير عن أفكاره فهذا دليل على نقص ثروته اللغوية.
- أدى البحث عن العلاقة التي تربط اللغة بالمجتمع إلى ظهور فرع معرفي جديد أطلق عليه "علم اللغة الاجتماعي" الذي يتناول اللغة بطريقة مختلفة عن اللسانيات.
- كانت حجج الفريق الذي ادعى أنَّ اللغة لا تربطها أي علاقة بالمجتمع واهية وبراهينهم غير مقنعة، فلا يمكن للعاقل أن يغفل عن مدى تأثير اللغة في المجتمع وتأثيرها به.
- ثمَّ إنَّ الحديث عن علاقة اللغة بالمجتمع يعدّ من المواضيع الأزلية التي شغلت بال المتكلمين في الماضي والحاضر وستشغلهم في المستقبل، لأنَّ كل تغيير يطرأ على المجتمع سينعكس على اللغة، ومن وظيفة اللغة مجاراة ما يحدث في المجتمع.

المراجع:

- 1- ابن جني أبو الفتح، الخصائص، ج1، تح. محمد علي النجار، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1986.
- 2- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، تح علي عبد الواحد وافي، ط3، دار النهضة المصرية، مصر 1989.
- 3- ابن نبي مالك، تأملات، تر. عبد الصابور شاهين، ط1، دار الفكر، دمشق سوريا 1989.
- 4- ابن منظور أبو الفضل، لسان العرب، ج 13، ط3، دار صادر، بيروت لبنان 1994.
- 5- السعران محمود، اللّغة والمجتمع، رأي ومنهج، ط2، دار المعارف، القاهرة، مصر 1963.
- 6- بشر محمد كمال، دراسات في علم اللّغة (القسم الأول)، د ط، دار المعارف القاهرة، مصر 1969.
- 7- تمام حسان، اللّغة بين المعيارية والوصفية، ط1، المكتبة الأنجلو المصرية، مصر 1958.

- 8- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ط 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة مصر 1973.
- 9- دي سوسير فرديناند، محاضرات في الألسنية العامة، تر. يوسف غاري ومجيد النصر، ط 1، دار النعمان للثقافة، لبنان 1984.
- 10- ظاظا حسن، اللسان والإنسان، د ط، مكتبة الدراسات اللغوية، القاهرة، مصر 1971
- 11- علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، ط 2، دار احياء الكتب العربية، مصر 1951.
- 12- فندريس جوزيف، اللغة، تر. عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، ط 1، المكتبة الأنجلو المصرية مصر 1950.
- 13- كوراني أليس، اللغة والمجتمع عند العرب، الجاحظ نموذجاً، ط 1، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان 2013
- 14- نهر هادي، علم اللغة الاجتماعي عند العرب، ط 1، دار الغصون، بيروت، لبنان 1988
- 15- مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، د ط، المطابع الأميرية: الهيئة العامة للشؤون. 1983